الحركة الأنعزاليّة
وخطر تفاقم « القضيّة اللبنانيّة

اعدت « لجنة الثقافة والدراسات » في جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية في بيروت ، هذه الدراسة ـ الوثيقة التي تلقي الاضواء على الاسباب الاساسية لاحداث لبنان الاخيرة .

١ ـ الحركة الانعزالية خطر على العروبة

اكدت الاحداث الرهيبة التي سادت لبنان منذ نيسان ١٩٧٥ واستمرت ستة عشر شهرا ، وجود حركة انعزالية نشطة في لبنان بين صفوف « الموارنة » ، بحيث بات من الواجب التصدي لخطورة الوضع الذي اخذ يتمثل بما يلي :

١ ـ تعرض العروبة في لبنان لخطر التصفية عن طريق خلق اوضاع معينة تؤدي الى نزع الهوية العربية عن لبنان نهائيا .

٢ ـ محاولة انشاء كيان عنصري على اساس طائفي بحيث يلقى الدعم والتأييد من اسرائيل التي تجد فيه افضل مبرر لوجودها .

٣ ـ خطر احتمال انتقال عدوى الشعور بالانتماء الطائفي ، الذي يفكك الحس بالانتماء الوطني والقومي ، الى اقطار عربية اخرى .

وهكذا اصبح من الواجب التعرف الى الجذور التاريخية والى التحركات الحالية لتلك الحركة الانعزالية العنصرية ، تمهيدا لفضحها نهائيا ثم لمحاربتها وللتصدي لجميع وجوه تحركها المحتملة مستقبلا . هذا مع التاكيد انه ليس من المبالغة في شيء القول باننا نعاني حاليا من « قضية لبنانية » يخشى في حال عدم مجابهتها بسرعة وجدية ان تتفاقم فتماثل وربما تفوق في خطورتها القضية الفلسطينية .

٢ ـ العلامات المميزة للتحرك الانعزالي خلال الاحداث

أ ـ رئيس الجمهورية السيد سليمان فرنجية تخلى عن دوره كرئيس لجميع اللبنانيين ودخل طرفا في الحرب الاهلية من الناحيتين السياسية والعسكرية ، خاصة وهو مؤسس ميليشيا معروفة باسم « جيش التحرير الزغرتاوي » كما انه استخدم الجيش اللبناني في المشاركة في تدريب الميليشيات الطائفية وتسليحها ، وفي المعارك ضد الفريق الوطني .

ب ـ وزير الداخلية السيد كميل شمعون (رئيس الجمهورية ايام فتنة ١٩٥٨) دخل أيضا طرفا ، ووجه جميع أجهزة الامن الداخلي لخدمة الفريق الانعزالي بالاضافة الى رعايته منذ زمن طويل لميليشيا خاصة تعرف باسم « النمور » .

ج ـ حزب الكتائب (رئيسه بيار الجميل) يدعو الى العمل الديمقراطي من خلال مؤسسات النظام وفي الوقت نفسه يمتلك أضخم ميلشيا قامت بتنفيذ ابشع المجازر الجماعية ضد الابرياء ، ومنها مجزرة اتوبيس عين الرمانة (٣٠ قتيلا) في ١٣ نيسان ١٩٧٥ (بداية الاحداث) ومجازر السبت الاسود ٦ـ١٢ـ٧٥ (خطف حوالي ٣٠٠ من الشوارع والمكاتب في العاصمة ثم تصفية حوالي ٢٥٠ منهم فورا على اساس انتمائهم الاسلامي) .

د ـ ظاهرة الاباتي « شربل قسيس » وهو الراهب المعروف ، رئيس الرهبانيات اللبنانية (المارونية) الذي كان يتبنى اكثر الافكار تطرفا ، ويشجع على اعمال العنف كافة ، ويضع الاديرة بامكانياتها في خدمة الميلشيات الطائفية على جميع الاصعدة .

هـ ـ رغم جميع اتفاقات وقف اطلاق النار والتي جاوز عددها الخمسين ، فان الفريق الانعزالي كان يعمد دائما الى خرق الاتفاقات والعودة للاقتتال ، حتى بلغت الخسائر البشرية ما يقدر بـ ٣٠ الف قتيل و ٨٠ الف جريح معظمهم من الابرياء والعزل (في بلد سكانه حوالي ٣ ملايين) . والخسائر الاقتصادية جاوزت الدخل الوطني لمدة أربع سنوات ، في الوقت الذي كانت الحرب تكلف الفريق الانعزالي ما يقارب المليون دولار يوميا (دون ثمن الاسلحة طبعا) .

و ـ منذ بدء الاحداث ، شجع الانعزاليون على التهجير ثم عملوا على تنفيذه بالعنف ، بقصف المناطق السكنية واقتحامها والتعدي على سكانها الآمنين وعلى اموالهم واعراضهم ونسف المباني القائمة بما فيها المساجد (حي الكرنتينا ، سبنيه ، الغوارنة) . كما جرى احراق اسواق شعبية بكاملها بعد نهبها كسوق سرسق ، وقد ترتب على ذلك ردات فعل اصابت الابرياء من اللبنانيين في الجهة الاخرى ايضا ، كما في الدامور مثلا .

ـ قام الانعزاليون بحصار تجويعي لمخيمات واحياء يقطنها فلسطينيون ولبنانيون (مخيم تل الزعتر : ١٦ الف فلسطيني

و ١٥ الف لبناني) في الوقت الذي كانت تبحث فيه قضية فلسطين في مجلس الامن بعد ١٢-١-٧٦ ، ثم اعلنوا ان حرب تحرير كامل التراب اللبناني قد بدأت .. ضد العروبيين طبعا .

ز ـ عمل الانعزاليون على اضفاء الطابع الديني عمدا على الكثير من تصرفاتهم ، وكان ابرز تصرف هو قيام محاربيهم بتعليق صليب خشبي كبير بشكل استفزازي على صدورهم تشبها ب « الصليبيين القدماء » .

ح ـ لم يوفر الانعزاليون الرعايا العرب من مذابحهم ، بل قاموا بالبطش بهم اينما علقوا في شباكهم ، رغم تشدقهم المنافق ب « الشقيقات » العربية وبالدفاع عن قضايا العرب .

ط ـ يصنف الانعزاليون المقاومة الفلسطينية بين « مقاومة شريفة » واخرى غير شريفة ، وهم فعلا ضد المقاومة اطلاقا ، لانها تمثل الارادة العربية بمقاومة الصهيونية حليفة الانعزالية . فعقب اجتماع « للقمة المارونية المسلحة » برئاسة سليمان فرنجية صدر بيان عشية اجتياح مخيم ضبية (١٤-١-٧٦) جاء فيه « ان الطائفة المارونية في لبنان تعتبر ان النزاع الحالي انما هو نزاع بين اللبنانيين خاصة المسيحيين منهم وبين الفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين » علما بأن مخيم ضبية يضم لاجئين فلسطينيين مسيحيين .

ي ـ يثير اقطاب الحركة الانعزالية موضوع « تسليح المخيمات الفلسطينية » في الوقت الذي يعرقلون فيه اتخاذ اية اجراءات فعالة للدفاع عن ارض الوطن وسمائه وسواحله ، علما بأن تسلح الفلسطينيين في لبنان كان بالدرجة الاولى للدفاع عن النفس ضد الغارات الاسرائيلية المتكررة .

ك ـ قبل الاحداث وخلالها ، دأب دعاة الحركة الانعزالية من الموارنة على الاصرار بالادعاء انهم يمثلون جميع مسيحيي لبنان وينطقون باسمهم ، وان ما عداهم اقل منهم « لبنانية » وبالتالي فان الطائفة المارونية هي التي تستحق بنظرهم تمثيل كل لبنان ، علما بانها تشكل اقل من ٢٠ بالمئة من عدد اللبنانيين ، كما دأب بعض دعاتهم على الادعاء بأن موارنة لبنان هم حماة الايمان المسيحي في الشرق ، وبالتالي فأن « لبنانهم » يجب ان يكون ملجأ جميع مسيحيي الشرق.

ل ـ يلاحظ ان مئات من «الجامعيين» و « رجال الفكر »واصحاب المهن الحرة من اطباء ومحامين ومهندسين وغيرهم قد شاركت في الاعمال القذرة التي شهدتها الحرب الاهلية ، وذلك ضمن اطر مختلف الميلشيات الانعزالية المسلحة ، بل ان المسؤول عن احد التنظيمات الجديدة التي ظهرت خلال الاحداث هو « نقيب » الاطباء الدكتور فؤاد الشمالي .

ولا يفوتنا الاشارة الى « الشاعر » سعيد عقل ، احد منظري الحركة الانعزالية ، والذي هو بالمناسبة صاحب الدعوة الى احلال « العامية » محل « الفصحى » وكتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني.

٣ ـ مواقف الحركة الانعزالية بعد الحرب العالمية الاولى

أ ـ مرحلة الانتداب (١٩١٩ ـ الحرب العالمية الثانية) :

ادت الحرب العالمية الاولى الىالقضاء على الامبراطوريةالعثمانية والى دخول بلادنا ضمن نطاق النفوذ الفرنسي . ونظرا لاثر التدخلات الاجنبية فقد تراءى للانعزالية ان الفرصة قد سنحت لربط « جبل لبنان » ذي الاكثرية المارونية في حينه مباشرة بفرنسا ، غير ان مصلحة فرنسا الدولة الكبرى كانت تقضي بتوسيع نفوذها ليشمل اكبر جزء ممكن من الشرق العربي ذي الاكثرية الاسلامية ، فكان مولد « دولة لبنان الكبير « (الحدود الحالية) على يد الجنرال غورو بعد معركة ميسلون (١٩٢٠) . وحظيت الانعزالية بعدئذ ، بالرعاية الكاملة من قبل فرنسا ، التي شجعت انصارها من الموارنة وغيرهم ، على التغلغل في اجهزة الدولة . ولا يفوتنا ان نذكر بهذه المناسبة ان « الكتائب » قد نشأت في تلك الفترة (١٩٣٦) بايحاء من سلطة الانتداب لمجابهة الوطنيين من جميع الطوائف ، وقد ترأس تلك المنظمة منذ ذلك الوقت الشيخ بيار الجميل . وبالمقابل كان الوطنيون يقاومون الانتداب ويعملون للاستقلال حتىكانت الحرب العالمية الثانية ، فنشأت متغيرات دولية مهدت لمرحلة الاستقلال .

ب ـ مرحلة نيل الاستقلال (١٩٤٣)

نتيجة المتغيرات المشار اليها ، اضطرت فرنسا للاعلان عن استقلال سورية ولبنان (حزيران ١٩٤٢) ، فقوى الاتجاه الاستقلالي في البلاد وضعف التيار الانعزالي المرتبط بفرنسا دون ان يتلاشى .

في هذه الاجواء ، تمكن الاستقلاليون من جميع الفئات من وضع اسس دولة الاستقلال ضمن صيغة وطنية تؤمن بالتعاون التام مع الدول العربية وقد كان لبنان بالفعل من مؤسسي جامعة الدول العربية (١٩٤٥) .

ج ـ مرحلة الاستقلال ولتاريخه

ما ان بدأت تتضح اتجاهات الحرب العالمية الثانية وتظهر نتائجها ، حتى عادت الانعزالية في لبنان تطل برأسها ، اعتمادا على اتجاه الدول الكبرى الى اعادة اقتسام مناطق النفوذ في الشرق الاوسط والى تثبيت مصالحها . وهكذا رأينا الانعزاليين يجاهرون تارة بمعارضتهم لجلاء القوات الاجنبية عن لبنان ، ويطالبون تارة اخرى بانشاء وطن قومي مسيحي في لبنان ، على غرار وطن يهودي في فلسطين .

ومع ان جلاء الجيوش الفرنسية عن لبنان قد تم في نهاية١٩٤٦، فان نكبة العرب في فلسطين بانشاء اسرائيل عام ١٩٤٨ قد انعشتامال الانعزاليين بامكانية تحقيق احلامهم بالعمل الطويل المنظم وبالاعتماد على الدول الاجنبية .

ثم كان عهد كميل شمعون الذي صدم بتعاظم المد الوطني العروبي في لبنان ، فعمل على ادخال لبنان ضمن ما عرف « بمبدأ أيزنهاور » « حماية » للانعزالية . وهكذا حدثت فتنة ١٩٥٨ التي صعدت ، بتشجيع من كميل شمعون والكتائب ، الاجواء الطائفية في البلاد . على اثر تلك الاحداث تمكنت الكتائب من دخول مجلس النواب لاول مرة وانشأ كميل شمعون حزب الوطنيين الاحرار .

وبوصول سليمان فرنجية « الاقطاعي الطائفي » الى سدة الرئاسة (١٩٧٠) توفرت للانعزالية اللبنانية افضل الاجواء لتصعيد ممارساتها على جميع الاصعدة ، ومنها النشاط الاعلامي وشحن النفوس والاجواء بالتشنجات الطائفية وبالعداء للعروبة (متمثلة خاصة بالفلسطينيين) وتضخيم الميلشيات وتجهيزها حتى توفرت منذ اكثر من عامين ظروف هيأت للاحداث الاخيرة ضمن عوامل دولية مؤاتية .

٤ ـ التدخلات الاجنبية في الشرق وزرع بذور الحركة الانعزالية في « جبل لبنان » .

أ ـ من الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر) وحتى الغزو العثماني (القرن السادس عشر)

بدأت التدخلات الاجنبية خلال الحروب الصليبية بمبادرات (١٢١٣ م) من باباوات روما نحو الكنيسة المارونية بغرض استمالتها ، ولم يكن ذلك بالشيء السهل بل استغرق قرونا . هذا ، وان اقتلاع الكنيسة المارونية من جنورها الشرقية وربطها بالغرب قد رافقه نزاعات بين الموارنة . ولجأت الكنيسة الكاثوليكية ايضا الى استخدام المرسلين الذين كانوا يتغلغلون في اوساط الاكليروس الماروني ويتبوأون رتبا كهنونية رفيعة .

واستمرت المحاولات المختلفة ، والتقارب التدريجي ، حتى تم الاتحاد بين الكنيستين في ١٧٣٦ م ، وكان هذا ذروة النجاح في وضع كنيسة شرعية بكاملها تحت سلطة البابا بحيث اصبح التوجه الروحي للموارنة نحو اوروبا ، أي نحو الغرب .

ب ـ الحكم العثماني وخاصة في القرن التاسع عشر

جرى تنظيم العلاقات التجارية بين الغرب والشرق ، التي نشأت في الحروب الصليبية ، وتوقفت فترة طويلة ، ثم استؤنفت في القرن الرابع عشر ، بموجب ما عرف بـ « الامتيازات الاجنبية » . وكان اشهرها اتفاق السلطان سليمان وفرنسوا الاول ملك فرنسا عام ١٥٣٥م، وكان هناك بعد ذلك اتفاقات سياسية اباحت للدول الاجنبية ومنها فرنسا التدخل في امور داخلية كحماية الحجاج الاوروبيين (١٧٤٠) وبالتالي حماية النصارى الكاثوليك في سورية ..

بالاضافة الى ذلك كان هناك تدخلات مباشرة مع الموارنة ، بشخص رئيسهم الديني ، من قبل ملوك فرنسا (١٦٩٧ و ١٧٣٧ مثلا) وبواسطة قناصلهم وذلك مع تعهد « بحماية الموارنة » . كما لجأت فرنسا الى تعيين قناصل لها هنا ، من اهل البلاد ومن كبار اقطاعيي الموارنة ، وبعضهم كان على علاقة خاصة مع الامراء المحليين وخاصة الشهابيين . وشهد القرن الثامن عشر والقرن التالي تنصر الامراء الشهابيين ، وازدياد نفوذ الموارنة في « جبل لبنان » ، ووقوعهم تحت التأثير الكامل للارساليات التبشيرية والتعليمية التي كان جل افرادها من الفرنسيين . كما ان سياسة الامير بشير الثاني المحابية قد هيأت الظروف للفتن الطائفية (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) حتى كان الانفجار الكبير عام ١٨٦٠ ، وعلى اثره ظهرت بوضوح اكثر ، « المسألة الشرقية » ، وتدخلات الدول الاوروبية في « الرجل المريض» بحجة « حماية الاقليات المسيحية » ، وقد فرضت تلك الدول على « جبل لبنان » حكم المتصرفية الذي اعطى الطابع الطائفي للجبل بشخص حاكمه « الكاثوليكي » « الاجنبي » . كما أن احداث ١٨٦٠ زادت الحساسيات الطائفية ، وجعلت الموارنة اكثر التصاقا بفرنسا ثقافة وتطلعا سياسيا ، حتى كانت الحرب العالمية التي توجت بمآسيها سوء الاوضاع في « جبل لبنان » خلال عهد المتصرفية ، وظن الانعزاليون ان الخلاص سيكون بسلخ لبنان نهائيا عن الشرق والحاقه بفرنسا بعد انتصارها في الحرب . وكانت الظروف التاريخية ، التي رافقت نشأة الموارنة ثم لجوؤهم الى « جبل لبنان » وانقطاعهم فترة طويلة عن الاحتكاك بالعالم حولهم حتى كانت الحروب الصليبية وما تلاها مما ذكرنا ، عوامل رئيسية في جعلهم العمود الفقري للانعزالية في لبنان ، وهذا واضح في الدراسة التاريخية المرفقة .

٥ ـ الاسباب الظرفية المباشرة لانتقال الحركة الانعزالية من العمل السياسي الى العمل العسكري .

اخذت الحركة الانعزالية منذ سنوات ، خاصة في الثلاث الاخيرة منها ، تعدل من نمط عملها ، وتحضر للانتقال من العمل السياسي المغلف بالمسألة الى العمل العلني العنيف ذي الطبيعة الفاشية ، الى ان كان الانفجار الاول في ربيع ١٩٧٥ . وقد تم هذا التغيير في نمط العمل بعد ان وجدت الحركة الانعزالية انها ستخسر جميع مواقعها اذا تابعت عملها باسلوب الحوار الديمقراطي والممارسة البرلمانية، خاصة وانها قد وجدت من اسرائيل وحلفائها كل ما تبتغيه من دعم ومساندة . اما الاسباب الظرفية ، التي ساعدت على دفع الحركة الانعزالية في اتجاه تغيير نمط العمل ، فهي كما يلي :

أ ـ ان التغيير السكاني (الديموغرافي) بين اللبنانيين منذ عام ١٩٢٠ (انشاء كيان لبنان الحالي) قد ادى الى حصول اختلال عددي كبير لغير صالح الموارنة (والحركة الانعزالية بشكل عام) .

ب ـ ان النمو العددي المشار اليه قد رافقته زيادة في عدد « المتعلمين » وتحسن في القدرة الاقتصادية اجمالا عند الفئات الاسلامية مما زاد في مخاوف الانعزاليين .

ج ـ تصاعد الحس الوطني عند كثير من اللبنانيين بشكل اخذ يهدد الشعور الطائفي الذي تستند اليه الحركة الانعزالية ، هذا بالاضافة الى تنامي الشعور العربي في لبنان خاصة بفعل وجود « المقاومة الفلسطينية » على أرضه .

د ـ بعد ان سادت الحكم خلال الثلاثين سنة الماضية ، هيمنة « مارونية » طاغية ، بفعل تأثير مرحلة الانتداب ، وتثبيت الامتيازات الطائفية « المارونية » ، بات من الاصح تسمية عهد الاستقلال « بالعهد الماروني » . غير ان هذا الحكم ، لم يحقق فعليا أي نجاح في اقامة الدولة المستقرة المتجانسة ، كما فشل في تحقيق أية سياسة انمائية فعالة في المناطق المتخلفة . وقد برز الفشل بشكل فاضح خلال عهد الرئيس فرنجية حيث عم الفساد وساد الانحلال في النواحي السياسية والاجتماعية والانمائية على صعيد مختلف مؤسسات الدولة. ازاء هذا الواقع المرير ، ونتيجة لمطالبة الفئات الوطنية بتحقيق الاصلاح وبالمشاركة الفعلية في الحكم ، توطد العزم لدى الانعزاليين على طمس الفشل ، فكانت الاحداث الاخيرة افضل وسيلة لذلك ، بتوتير الاجواء الطائفية وشحنها بواسطة مختلف الممارسات.

هـ ـ بعد حرب ١٩٧٣ خاصة ، اصبحت اسرائيل بحاجة ماسة الى تبرير وجودها الطائفي العنصري في المنطقة ، وذلك بالعمل على نشوء دويلات طائفية عنصرية اخرى تكون في الوقت نفسه مبررا وحليفا لها ، وكان لدى الحركة الانعزالية كل الاستعداد والرغبة للعب هذا الدور في لبنان ، أو في جزء منه على الاقل .

و ـ نظرا للتوافق بين اهداف الصهيونية والانعزالية في ضرب العروبة ، فان الحركة الانعزالية وجدت نفسها تنجرف وهي بكامل وعيها الى العمل على استنزاف المقاومة الفلسطينية والهائها بمواضيع جانبية تمهيدا لضربها ، وضرب حلفائها العروبيين في لبنان .

ز ـ نظرا للتوافق بين الاهداف البعيدة للانعزالية والصهيونية والقوى العالمية ، المعادية جميعها لتصاعد قوة العرب ، وبعد ان ظهر خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ مدى تأثير التضامن العربي ، كما برز بعدها تزايد نفوذ العرب السياسي وتصاعدت مقدرتهم الاقتصادية والمالية (النفط ومداخيله المتزايدة) ، فان الحركة الانعزالية قد تحالفت مع القوى المضادة لضرب التضامن العربي ، ولمحاولة تفكيك الشعب العربي في لبنان ، وفي غيره من الاقطار العربية

باحلال حس الانتماء الطائفي الفئوي محل الحس الوطني والقومي ، تمهيدا لافتعال الصراعات الداخلية المدمرة .

٦ ـ بعض المعلومات عن أبرز قيادات ومنظمات الحركة الانعزالية

أ ـ السيد سليمان فرنجية ، رئيس الجمهورية ومنشيء «جيش التحرير الزغرتاوي» (لاي تحرير ؟) لا يتعدى افقه الفكري حدود قريته « زغرتا » ، ونظرته للمواطن تتحدد حسب انتمائه العائلي الطائفي. قامت الميلشيا التابعة له ، التي يشرف عليها ابنه طوني ، وتضم بعض الفارين من وجه العدالة ، بممارسات عسكرية بشعة ضد طرابلس وقضاء الكورة ، وبمجازر جماعية أشهرها مجزرة داريا وبقطع مياه الشرب عن مدينة رئيس الحكومة طرابلس .

ب ـ السيد بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب ، اسس الحزب عام ١٩٣٦ كمنظمة سياسية شبه عسكرية برعاية السلطة المنتدبة فرنسا لمقاومة الاتجاه العربي في لبنان . لم يدخل البرلمان الا بعد فتنة ١٩٥٨ التي اشعلها كميل شمعون وساندته فيها الكتائب . كانت لبيار الجميل ، حتى قبل انشاء دولة اسرائيل ، مواقف عبر فيها عن تعاطفه مع الحركة الصهيونية ، انطلاقا من مسعى الانعزالية لانشاء وطن قومي طائفي في لبنان . (راجع الملحق التاريخي) .

اما ميلشيا الحزب ، فهي اضخم ميلشيا انعزاليه واكثرها تنظيما، ولها أطر من رجال الاعمال واصحاب المهن من اطباء ومحامين ومهندسين ، والمنتشرين خارج لبنان ايضا ، حيث يعملون متسترين لخدمة اهداف الحزب في البلاد العربية وفي بلاد الاغتراب ، اميركا واستراليا . وفي الاحداث الاخيرة فرض الحزب نفسه على سكان المناطق التي يسيطر عليها الانعزاليون (المنطقة الشرقية من بيروت والمتن الشمالي وكسروان) كبديل للسلطة في محاولة لتأمين بعض الخدمات بالقوة والخوة . شاركت الميلشيا بشكل بارز في عمليات التهجير القسرية والجماعية في حارة الغوارنة ، الكرنتينا ، المسلخ ، مخيم ضبية الخ .. كما شاركت في الحصار التجويعي لمخيمي تل الزعتر وجسر الباشا ومنطقة النبعة . قامت بمجازر جماعية (عين الرمانة ، السبت الاسود ..) وباعمال القنص والخطف والقتل حسب الانتماء الطائفي والتشويه والتعذيب . كما جندت الكتائب فتيات لبنانيات شاركن في جميع الاعمال المذكورة ..

ج ـ كميل شمعون ، مؤسس ميليشيا « النمور » المسبب لفتنة ١٩٥٨ ، التي جعلته قائدا طائفيا بارزا ، اشتهر بالالاعيب السياسية الملتوية وبارتداء لباس العروبة الكاذب وهو الانعزالي المتعصب .

د ـ الرهبانيات برئاسة الاباتي شربل قسيس المعروف بتردده على الاراضي المحتلة في فلسطين ، قامت بدعم الميليشيات العسكرية على كافة الاصعدة ، ووضعت الاديرة ومؤسساتها في خدمة الاعمال العسكرية .

هـ ـ الرابطة المارونية برئاسة المحامي شاكر ابو سليمان ، كان لها ايضا تنظيمها العسكري الخفي .

و ـ « التنظيم » (الماروني) ، والمسؤول عنه الدكتور فؤاد الشمالي نقيب اطباء لبنان . اشتهر بممارساته البشعة لاثبات وجوده في الساحة ، وفي صفوفه يكثر عدد اصحاب المهن الحرة ، والمسؤول عن التدريب هو « المحامي » جورج عدوان .

ح ـ حراس الارز ، ومنظرهم « الشاعر » سعيد عقل المغالي في عدائه للعروبة وللثقافة العربية خاصة . مسؤولهم العسكري « ابو ارز » وهو السيد اتيان صقر .

وهناك تنظيمات عسكرية اخرى بأسماء عديدة ذات مدلولات دينية او عنصرية . (مار نهرا ، جماعة الصليب ، فتيان ادونيس ..)

٧ ـ الحركة الانعزالية تحاول التشبه بالحركة الصهيونية

نعلم ، بالرجوع الى التاريخ (راجع الملحق) ان نشأة الموارنة المذهبية ، كان لها تأثير كبير على ايجاد « الشعور بالاقلية » لديهم تجاه ابناء ديانتهم من سائر مسيحيي الشرق وتجاه المحيط الاسلامي في ما بعد .

كما ان مشاحناتهم المذهبية مع اليعاقبة من مواطنيهم المسيحيين ثم اضطهاد الروم البيزنطيين لهم قد دفعهم الى « اللجوء الى جبل لبنان » فنشأت لديهم تلك العقدة بانهم « لاجئون » وبأن لبنان الجبل « ملجأ » لا وطن كسائر الاوطان .

اما بقاؤهم قرونا عديدة في الجبل بعيدين عن الاحتكاك بالمحيط حولهم فقد نمى لديهم نزعة « الانغلاق » .

يضاف الى ما ذكرنا ، التدخلات الاجنبية للبابوات والمرسلين المذكورة في الملحق ، والتي استغلت اوضاع الموارنة المشار اليها واوحت اليهم انهم « وردة بين الاشواك » وانهم « شعب مختار ، اصطفاه الله ، وأوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحية في الشرق » .

وتابعت التدخلات الاجنبية مع الموارنة في لبنان مساعيها حتى سلختهم كنسيا عن الشرق والحقتهم بالغرب فزاد شعورهم المصطنع بانهم غريبون عن هذا الشرق .. وجاءت فرنسا تعرض عليهم «حمايتها» و « رعايتها » امعانا في ابعادهم عن سائر اخوانهم في الوطن واكتسابهم وجعلهم اكثر التصاقا بها خدمة لمصالحها الاستعمارية في الشرق ، حتى اعتقد قسم كبير من الموارنة بامكانية انشاء وطن قومي طائفي خاص بهم يرتبط مباشرة بفرنسا . وقد كان للارساليات الاجنبية التأثير الاكبر في خلق التيار الفكري الانعزالي ، وذلك بطمس التاريخ الحقيقي للمنطقة وتزييف تاريخ اخر وتوجيه اهتمام الطلبة الى تاريخ فرنسا خاصة واوروبا عامة والى ثقافتهما .

كما عمل المبشرون واتباعهم على محاربة اللغة العربية وتصغير دور الثقافة العربية مما رسخ في اذهان الاكثرية المارونية ضعف ، أو حتى انعدام صلتهم بالعروبة تاريخا وثقافة .

من هنا ، كان نشوء التيار الانعزالي المبني على فرضية وجود عنصرية مارونية متميزة ، وبالتالي اخذت الحركة الانعزالية تحاول تتبع خطى الحركة الصهيونية بتوجيه من القوى العالمية المعادية للعروبة .

أ ـ في الاستراتيجية

ـ السعي لانشاء وطن قومي طائفي يستند الى ان الموارنة شعب مميز ومختار من الله وله ، حسب زعمهم ، صفاته القومية .

ـ الاعتماد على الغرب في انشاء ذلك الوطن وفي تأمين الحماية له .

ـ استخدام الولاء المزدوج للموارنة المغتربين في سبيل تأمين الدعم والمساندة ودعوتهم للعودة الى الوطن . وقد يكون انشاء « الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم » بداية لخلق المؤسسة العلنية لربط المغتربين ، وخاصة الموارنة منهم ، على نمط الوكالة اليهودية ، ولقد صرح بدوي أبو ديب الامين العام لتلك الجامعة في ١٤-٢-٧٦ « اننا سنقتدي بما فعلته منظمات اليهود في الشتات لكي ندافع عن ثقافتنا وحضارتنا .. ان اكثر من ثلاثة ملايين لبناني (؟) مسيحي يعيشون خارج لبنان سيقومون بتنظيم صفوفهم لمساندة اخوانهم في الدين ، الذين يعانون في لبنان » .

ـ جعل ذلك الوطن ملجا وملاذا لمسيحيي الشرق ابعادا لهم من اضطهاد مزعوم ، كما يفعل الصهيونيون عندما يشجعون هجرة اليهود من بعض انحاء العالم بزعم اضطهادهم هناك .

ب ـ في التكتيك :

ـ تزوير التاريخ : وذلك لاختلاق المبررات الزاعمة بان الموارنة يشكلون قومية متميزة وليسوا عربا ، وبانهم من اصل خاص يختلط فيه الفينيقيون والعناصر غير السامية ، وما الى ذلك مما ليس له اي اساس من التاريخ الصحيح (راجع الملحق) . فالموارنة باكثريتهم الساحقة ، عرب كسائر شعوب الاقطار العربية الشرقية ، اي من وطن عرقي واحد : شبه جزيرة العرب .

ـ اعتماد الدين : (كما تعتنقه طائفة معينة) كاساس للرابط العنصري بين افراد الطائفة المارونية ، واعتباره كشرط كاف لايجاد الدافع لترابط الموارنة المقيمين في لبنان ، مع الاخرين المغتربين الذين تركوا لغتهم ومقوماتهم الاخرى .

ـ اعتماد سياسة المراحل : تعتمد الحركة الانعزالية لتحقيق اهدافها البعيدة على اسلوب المراحل الذي يساعد على تذليل الصعوبات الآنية اولا بأول ، وتبنّي التريث الى ان تنشأ الظروف المؤاتية وخاصة دوليا . ويتمشى هذا الاسلوب مع المخادعة والنفاق ، في سبيل غش الخصوم وايهامهم زورا بان الانعزالية قد تخلت عن نشاطها وعن العمل باتجاه اهدافها .

ـ وضع الاجيال الناشئة ضمن اجواء فكرية خاصة : يشدد الانعزاليون على ما يسمونه « بالتعليم الحر » ويقصدون به حرية الارساليات الكاثوليكية خاصة ، من اجنبية ومحلية ، في التعليم حسب التوجيهات التي يرتأونها مناسبة لافكارهم ، وهم يعارضون في الوقت نفسه تطوير مناهج التعليم وتوسيع دائرة التعليم الرسمي ورفع مستواه امعانا في ابقاء « التعليم التبشيري » هو المسيطر ، خاصة في المناطق المارونية . ويتعاونون مع الرهبانيات (التي شاركت في الحرب الاهلية) ومؤسساتها المختلفة على « تعييش » الشبيبة المسيحية (والمارونية خاصة) في اجواء متعصبة ضمن جماعات مغلقة على قدر الامكان ، في محاولة لعرقلة الاختلاط والتبادل الفكري مع باقي المواطنين من الطوائف الاخرى . وقد تصاعد هذا النوع من فرض الحجر الفكري ، اثناء الاحداث طيلة الشهور العشرة ، حتى اصبحت مناطق الانعزاليين « غيتوات » مغلقة اعترف بوجودها الكثيرون ، ومن اشهرهم السياسي الماروني ريمون اده .

ـ تنظيم الشباب : اهتمت الحركة الانعزالية بتنظيم الشباب وكانت اولى البدايات الواضحة تأسيس « الكتائب » كجمعية رياضية ذات تنظيم شبه عسكري عام ١٩٣٦ ، كما رافق ذلك الاهتمام بجمعيات الكشافة وما شابهها .

هذا ويلاحظ ان الكتائب قد طورت اساليب عملها في عهد الاستقلال وتحولت الى ما يشبه « الهاغاناه » وامثالها من العصابات الصهيونية ، وذلك كسائر ميليشيات الانعزاليين .

ـ التوسع في استعمال العنف البشع : منذ بداية الاحداث انفجر الحقد الانعزالي بوجه المواطنين المسلمين ، وبوجه المواطنين العرب اجمالا ، وتمثل في عمليات الخطف والتعذيب والتشويه والقتل والقنص دون أي سبب سوى الانتماء الطائفي أو القومي .

وقد خدمت هذه الاعمال خطة الانعزاليين في تقسيم المناطق اللبنانية وفي التهجير الطائفي وفي اعلان العداء للعروبة .

ان محاولة « الحركة الانعزالية » في لبنان تقليد « الحركة الصهيونية » في معظم نواحي الاستراتيجية والتكتيك لا يعني بالضرورة ان هناك تطابقا في الاساس الديني والتاريخي :

أ ـ في الاساس الديني : لا يمكن انطلاقا من مفاهيم الديانة المسيحية الوصول الى الاسس نفسها التي تقدمها الديانة اليهودية عن « شعب الله المختار » و « ارض الميعاد » وما الى ذلك ... فضلا عن ان الدين المسيحي هو دين المحبة والتسامح ، وهو يرحب بكل من يريد اعتناقه ، ولا يمكن « للمارونية » التي هي غصن من الفرع الكاثوليكي في الدوحة المسيحية الكبرى ان تختلف عن ما ذكرنا .

ب ـ في الاساس التاريخي : يزعم الصهيونيون زورا ، ان اليهود المنتشرين في العالم هم نتيجة عملية التشتيت والتشريد (الدياسبورا) التي تعرض لها اليهود القدماء في فلسطين ايام السبي الروماني ، غير ان الموارنة الذين تركوا موطنهم الاصلي في وادي العاصي وسهول سورية الداخلية وقصدوا « شمالي جبل لبنان » ، كان ما وصلوا اليه « لجوء وتجمعا » لمعظمهم ، وكل ذلك هو عكس الشتات .

اما عملية « الهجرة » خلال القرن التاسع عشر فقد انطلقت لاسباب اقتصادية عقب اقامة « متصرفية جبل لبنان » التي فصلت بين « الجبل » وبين السهول المنتجة والموانىء الجيدة .

هذه « الهجرة » لا يمكن طبعا ان تشكل شيئا مشابها من الناحية التاريخية « للدياسبورا » ، والا لكان جميع من هاجر من بلدان العالم المختلفة الى بقاع اميركا واستراليا طمعا بالثروة قد تعرض الى تشريد وتشتيت .

ولا يسعنا في الختام الا ان نلفت النظر مجددا الى خاصية من خاصيات الحركة الانعزالية ، وهي سياسة المراحل التي تعمل من خلالها الحركة لتحقيق اهدافها . وهكذا يتوجب التنبه دائما الى هذه الناحية والبقاء في حالة الحذر والترقب .

هذا ، ولا يستبعد بعد آن تراجع حاليا الانعزاليون المتطرفون عن سعيهم للتقسيم الذي لم يلق التجاوب اللازم من بعض القوى الدولية ، ان يلجأوا الى تحريك قضية اللامركزية الموسعة باعتبارها قضية داخلية بحتة ، ولكنها تنقل البلاد الى مرحلة الكانتونات الطائفية ، بحيث تكون مقدمة لاعادة طرح موضوع التقسيم في ظرف مناسب .

ملحق تاريخي

ان المقصود بهذا العرض التاريخي هو القاء الاضواء على تاريخ الموارنة في لبنان من الزوايا التي تساعد على تبين ظروف نشأة الحركة الانعزالية ونموها عبر التاريخ بفعل التدخلات الاجنبية في الشرق .

٢ ـ عرض سريع للفترة السابقة للحروب الصليبية

ان « لبنان » او « جبل لبنان » ككيان سياسي لم يظهر الا في العصور الحديثة ، (منذ الامارة المعنية العربية ايام فخرالدين في بداية القرن السابع عشر) ، وخاصة في المائة سنة الاخيرة . وقد كان قبل ذلك تعبيرا جغرافيا يقصد به اجمالا سلسلتا جبال لبنان الشرقية والغربية بما فيها احيانا جبل الشيخ (آو حرمون) .

ومنذ قديم الازمان نزلت في البقاع الواقعة شمال جزيرة العرب في ما عرف ببلاد ما بين النهرين وبسورية الطبيعية اقوام خرجت بغالبيتها العظمى من شبه الجزيرة العربية وقد عرفت اصطلاحا

« بالساميين » ، وقد كان منهم الاموريون والكنعانيون (ومنهم الفينيقيون) والاراميون والاشوريون والايطوريون (او العيطوريون الذين نزلوا الارياف جنوبي جبل لبنان قبل الميلاد بقرون عديدة) والقبائل العربية الاخرى (غساسنة ، مناذرة ، الخ ..) .

ومن المفيد ان نشير الى ملاحظتين :

أ ـ ان الفينيقيين قد نزلوا السواحل وأسسوا الممالك ـ المدن من عكا جنوبا وحتى اللاذقية شمالا مرورا بصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس ولم ينشئوا اية دولة او سلطة موحدة . وكانت السفوح القريبة من الشاطىء وحيث الجبال خالية اجمالا من السكان تتبع سلطان الممالك ـ المدن الى حد ما .

ب ـ الشعوب « السامية » المشار اليها اعلاه تخلت تدريجيا عن وثنيتها وأخذت تعتنق الديانة المسيحية بمختلف نحلها ومللها خاصة بعد اعتناق الحكم البيزنطي لها . وقد ظهرت قبل الفتح العربي بحوالي ٢٠٠ سنة في سهول سورية الداخلية على ضفاف العاصي وحتى حلب وانطاكية شمالا جماعة دينية مسيحية نسبت الى احد المتنسكين واسمه « مارون » فعرفت بالموارنة . كما ظهرت جماعات أخرى كاليعاقبة الذين كان لهم نزاعات دموية مع الموارنة (بسبب الخلاف المذهبي) استمرت حتى الفتح العربي حين سمح للموارنة « باللجوء » الى القسم الشمالي من « جبل لبنان » (الجبال الموازية للساحل بين طرابلس وجبيل على السلسلة الغربية فقط) . فكانت بداية اقامتهم في شمالي جبل لبنان وذلك ابتداء من النصف الثاني للقرن السابع الميلادي .

وكان الفتح العربي لسورية الطبيعية بشهادة المؤرخين فتحا يسيرا لان السكان الساميين ، ومنهم كانت بعض القبائل العربية المسيحية كالغساسنة وامثالهم ، قد رحبوا بالعرب الفاتحين الذين تربطهم بهم روابط القربى العرقية . وقد جاءوا يخلصونهم من حكم « البيزنطيين » الغرباء عنهم عرقا ولغة وثقافة . هذا مع العلم ان « جبل لبنان » كان شبه خال من السكان اللهم الا من بعض النساك .

وقد يكون من المفيد ان نذكر هنا ان بعض العائلات اللبنانية المارونية العريقة تعتقد انها من عرب جنوب الجزيرة العربية كآل الخازن الذين يدعون انهم من الغساسنة أو آل ملحمة الذين يقولون ان اجدادهم قد اتوا الى العاقورة (جبل المنيطرة) من حوران أيضا وعن طريق دمشق (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) فالموارنة اذن هم عرقا عرب .

وفي النصف الثاني للقرن العاشر ، بعد ان حل الضعف في الدولة العباسية واستطاع الروم استرجاع قسم كبير من سورية ، ترك باقي الموارنة وادي العاصي و « لجأوا » الى شمالي جبل لبنان وقسم اخر منهم الى حلب حيث اجتمعوا بامرائها العرب المسلمين من بني حمدان ثم بني مرداس . وقد كانت المدينة السورية التي لم تسقط في يد الروم . (د. ك صليبي ـ الموارنة ، صورة تاريخية) .

وهكذا تبت ان « لجوء » الموارنة كأقلية دينية الى شمالي جبل لبنان قد تم على مرحلتين : الاولى بسبب مشاحناتهم مع مواطنيهم المسيحيين من اليعاقبة ، والثانية : هربا من اضطهاد اخوانهم في النصرانية وهم الروم الغرباء ، اما العرب المسلمون فكانوا افضل حماة لهم داخل امبراطوريتهم الكبرى . وقد مكث الموارنة في بيئتهم الجبلية المحصورة في الكتلة الجبلية الموازية للساحل بين طرابلس وجبيل قرونا عديدة حتى حوالي نهاية الحروب الصليبية ، فكانوا قليلي الاحتكاك بالمحيط حولهم حتى بالغ بعض المؤرخين بالقول « انقطع الموارنة بعد لجوئهم الى جبل لبنان عن العالم الخارجي » (د. ك صليبي ـ الموارنة ، صورة تاريخية) . اما فترة الحروب الصليبية فلم تشهد اية علاقة خاصة او متميزة بينهم وبين الصليبيين بل كان منهم بعض المرتزقة من الادلاء وحملة الاقواس كما كان من غيرهم بعض الفرسان المسلمين والمشاة الارمن (فيليب حتي ـ لبنان في التاريخ) . وهنا لابد من لفت النظر الى انه من الناحية الدينية الكنسية كان الموارنة من المسيحيين الشرقيين الذين لا علاقة لهم بالكنسية الغربية في روما حتى بدأت بعض الاتصالات البابوية بهم خلال الحروب الصليبية مما سنعود له فيما بعد .

.. وبعد الفتح العربي ، بالاضافة الى الموارنة الذين لجأوا كما قلنا الى شمالي جبل لبنان ، فقد نزلت ابتداء من منتصف القرن الثامن في جبالنا ، خاصة المحيطة منها ببيروت ، قبائل عربية (مسلمة) من اللخميين والارسلانيين ثم التنوخيين فعمرت الجبال بالسكان المقيمين . وخلال الحروب الصليبية تعززت عروبة هذه البلاد على عكس ما قد يظن بعضهم « فقد بقيت جبال بيروت مع المسلمين فيما كانت المدينة في ايدي الفرنجة » (تاريخ بيروت لصالح بن يحي التنوخي) . ووفد المزيد من القبائل العربية الاصيلة كالمعنيين والشهابيين الذين شاركوا مشاركة فعالة في تطهير البلاد من الفرنجة وفي حمايتها من غزوات فلولهم على سواحلها ، وفي عهد المماليك اخذ الموارنة ينتشرون جنوبا فدخلوا كسروان باعداد كبيرة ، وهم لم يتعرضوا بشكل خاص لاي اضطهاد من المماليك، بل على العكس فان التأديب قد اصاب فئات من المسلمين المتواطئين مع فلول الفرنجة ، فحل الموارنة مكانهم في كسروان ، بعد ١٣٠٥م .

واذا كانت الحروب الصليبية قد شكلت نقطة تحول في تاريخ الموارنة فلانها بعد قرون من « العزلة » التي فرضها على انفسهم معظم الموارنة في شمالي جبل لبنان ، فولدت لديهم اولا بحكم وضعهم الديني عقدة « الاقلية » بالنسبة لباقي المسيحيين ثم لمجموع المسلمين وثانيا بحكم التجائهم لبيئة جبلية عقدة « اللجوء والانطلاق » نقول بعد قرون من العزلة بدأت اوروبا نحوهم تحركا مشبوها تمثل اول ما تمثل بتقرب روما منهم كنسيا .

٢ ـ نتائج الحروب الصليبية

منذ عام ١٢١٣ م بدأ البابوات يبعثون برسائل الى البطاركة الموارنة يشيدون فيها بحسن ايمان الكنيسة ـ المارونية وبرسوخ عقيدتها الثابتة وذلك لاجتذابهم مظهرين لهم شديد اعجابهم حتى لقد وصف احدهم الكنيسة المارونية « بالوردة بين الاشواك » ، امعانا في التحريض المبطن . لكن تجدر الاشارة الى أن عملية اجتذاب الموارنة للالتحاق بكنيسة روما لم تكن سهلة بل انقسم الموارنة في الامر « وقام بين الفريقين خلاف شديد ادى الى اشتباكات دامية » هذا بالاضافة الى ان الفرنجة « كانوا على العموم ينظرون الى المسيحيين من ابناء البلاد بشيء من الفطرسة ويعتبرونهم ادنى مرتبة » ، وهكذا فان عملية اقتلاع الموارنة من جذورهم الشرقية وربطهم بالغرب (روما) تحقيقا لمصالح البابوية التي كانت في الاساس وراء التحريض على الحروب الصليبية لم تكن عملية سهلة ولا بمبادرة من اهل البلاد بل بتحريض من الاجنبي خدمة للنفوذ الاوروبي في بلادنا باصطناع اقليات (دينية) مرتبطة بالغرب . ومع الزمن اخذت العلاقات تتوطد حتى افتتح عام ١٥٨٤ في روما معهد خاص لتدريس اللاهوت لرجال الدين الموارنة . « ولقد كان لهذا الحادث مغزاه التاريخي فقد خرج من هذا المعهد ألمع رجال الاكليروس الماروني الذين عادوا الى وطنهم ليعملوا في سبيل ضم الكنيسة المارونية الى حظيرة الفاتيكان ، لكن اتحاد الكنيسة المارونية التام مع الكنيسة البابوية لم يتم الا عام ١٧٣٦ (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) .

يضاف الى ما ذكرنا تاثير « الحركة التبشيرية » التي بدات خلال الحروب الصليبية مع تأسيس الرهبانيات الكرملية (١١٥٤) والفرنسيسكان والدومينكان ، والتي وصف مهمتها احد اساقفة الدومنيكان عام ١٢٧٠ بالقول « نريد مرسلين لا جندا لاسترداد الارض المقدسة » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) وكان من جملة الاساليب التي اتبعت ان امتزج بعض الرهبان الاجانب بالاكليروس الماروني امتزاجا حتى تسلقوا فيه رتبا كهنوتية رفيعة كالراهب الفرنسيسكاني غريفون (في لبنان ١٤٥٠ ـ ١٤٧٤) الذي كان يرسل الى رومة تلاميذ ليعودوا منها رهبانا قد تشربوا هناك الروح المطلوبة كجبرائيل القلاعي الذي « كتب مقالات عديدة دافع فيها عن علاقة الكنيسة المارونية بكنيسة روما » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) وقد تبوأ ذلك الراهب الفرنسيسكاني مركز مطران (توفي ١٥١٦) ونشرت له بعض القصائد الزجلية التي يصف فيها الطائفة المارونية بانها « شعب مختار ، اصطفاه الله ، والجاه الى مناعة جبل لبنان ، حيث اوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحية في الشرق » (ك. صليبي ـ الموارنة ، صورة تاريخية) .

وفي ايام المعنيين والشهابيين والمتصرفية (في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر) تدافعت ارساليات الكبوشيين واليسوعيين الى بلادنا تزيد في ترسيخ النفوذ الاوروبي في بلادنا وفي خلق العملاء له وتجميعها بواسطة « التعليم والتبشير » في اطر طائفية .

ومن الملاحظ انه « كان جل افراد هذه البعثات ـ سواء أكانوا مرسلين ام تجارا ـ من المواطنين الفرنسيين الذين كانوا عن عمد أو غير عمد يمهدون السبيل لتحقيق السياسة الخارجية الفرنسية التي وضعها لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) والتي اتبعها خلفاؤه في تشجيع التجارة الفرنسية وحماية الكثلكة » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) .

٣ ـ العهد العثماني ؟ ترسيخ النفوذ الاجنبي

والان لابد من وقفة لنتبين بعض الملامح للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين الشرق والغرب انطلاقا من ظروف الحروب الصليبية ونتائجها .

فبعد انشاء المملكة اللاتينية في القدس عام ١٠٩٩ شعر الصليبيون بضرورة الاستيلاء على المدن الساحلية ضمانا لحرية المواصلات مع اوروبة .

وقد تم ذلك بمساعدة المراكب الحربية التابعة للجمهوريات الايطالية والتي كانت تمدهم بالمؤن والسلاح والجند .

ومن جملة المكاسب التي حصل عليها الملاحون الاوروبيون لقاء تلك المساعدة الحق في توريد البضائع وتصديرها دون دفع ضريبة المكوس ، وقد كانت تلك المنافع « مقدمة لما عرف فيما بعد بالامتيازات الاجنبية التي اخذت تمنح للتجار الاجانب في الشرق الادنى » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) . وبعد زوال خطر الغزوات الصليبية استؤنفت العلاقات التجارية مجددا عند النصف الثاني من القرن الرابع عشر » (ف. حتي ، لبنان في التاريخ) ثم توطدت في عهد العثمانيين بفضل « الامتيازات » واهمها اتفاق السلطان سليمان مع فرنسوا ملك فرنسا عام ١٥٣٥ الذي كان « اساسا لازدهار التجارة الفرنسية وانتشارها مع الشرق » وبالمناسبة نشير الى معاهدة أخرى عقدت عام ١٧٤٠ بين السلطان محمود الاول ولويس الخامس عشر تنص بنودها على ان لفرنسة الحق في حماية جميع الحجاج والزوار (الاوروبيين) الذين يؤمون البلاد العثمانية . وقد كانت « هذه الامتيازات اساس الادعاء بأن فرنسة هي حامية جميع النصارى الكاثوليك في سورية » (ف. حتي) .

وفي بلادنا بعد زوال عهد المماليك سيطر العثمانيون ، وقد تميز حكمهم :

أ ـ بالابقاء اجمالا على الحكم المحلي للامارات العربية في « جبل لبنان » ومنها على وجه الخصوص الامارة المعنية التي برز منها بشكل خاص الامير فخرالدين المعني الثاني وقد لقب بأمير « صيدا وجبل لبنان » . وفي عهده تنشيطا للزراعة شجع « الموارنة » على الانتشار جنوبا باتجاه الشوف كما نمت التجارة الخارجية واندفعت الارساليات اكثر فاكثر نحو بلادنا للتعليم والتبشير .

ب ـ بتنظيم العلاقات المشار اليها اعلاه بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية وبازدياد التدخل السياسي المباشر لدولة فرنسا مع الموارنة بشخص رئيسهم الديني . وقد ظهر ذلك بشكل واضح منذ عام ١٦٩٧ عندما اصدر لويس الرابع عشر تعليماته الى قناصله في سورية لمساعدة « الامة » المارونية (وكان تعدادها ٧٠ الفا) وليكونوا في عون سائر الكاثوليك في المشرق واعلم رئيس الكنيسة المارونية بالامر ، وبعد اربعين سنة جدد لويس الخامس عشر هذا التعهد بحماية الموارنة مصدرا تعليماته الى قناصله « ليضعوا قنصلياتهم في خدمة بطريرك الموارنة ، وجميع افراد رعاياه » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) . وقد ارتدى التدخل الفرنسي مظاهر أخرى منها تعيين قناصلهم من كبار اقطاعيي الموارنة (آل الخازن في كسروان على وجه الخصوص) فكان اولهم نادر الخازن (١٦٥٥ م) الذي كان وصيا على احمد ابن الامير ملحم المعني كما كان منهم غندور اسعد الخوري (عام ١٧٨٧ م) الذي كان يشغل في الوقت نفسه منصب امين سر الامير يوسف الشهابي .

وقد شهد القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التالي خلافات شديدة بين الامراء الشهابيين خاصة بعد أن استقر الامر للقيسيين في جبل لبنان (ومنهم الشهابيون) بعد معركة عين داره (١٧١١) حيث انهزم اليمنيون (منهم آل علم الدين خاصة) فهاجرت اقوام عديدة من الدروز الى حوران حيث كانوا النواة لجالية درزية قوية هناك « وقد ادت معركة عين دارا الى اختلال التوازن الطبيعي الذي كان قائما بين مختلف الجماعات الروحية » (وخاصة بين الدروز والموارنة) ، وذلك طبعا على ضوء التدخلات الاجنبية المشار اليها . وقد تدخل في الخلافات بين الامراء الشهابيين ، ولو بشكل خفي امناء السر او المستشارون من الموارنة الذين كانوا يمثلون احسن تمثيل مصالح فرنسا ، مما زاد في نفوذهم وتأثيرهم على اولئك الامراء حتى رأيناهم ينتصرون « أو يتمورنون » ولو خفية استجلابا لتاييد «ماروني» مدعوم من فرنسا . وقد قيل مثلا عن اشهرهم الامير بشير الثاني (١٧٨٨ ـ ١٨٤٠) انه « كان مسيحيا بالمعمودية (اي بالسر) مسلما بالزواج ، ودرزيا بالمصلحة » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) . هذا الامير الذي ايد ابراهيم باشا ضد السلطنة العثمانية عند اجتياحه وحكمه لسورية (وقد توافق ذلك مع السياسة الفرنسية في حينه) قد ارسل جيشا من « الموارنة » بقيادة ابنه خليل للمؤازرة في اخماد ثورة « دروز حوران » فكان هذا بداية عهد عداء بين الدروز والموارنة » (ف. حتي) .

٤ ـ الفتن الطائفية (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) : نجاح الاجانب في التخريب

وهكذا نصل الى منعطف كبير في تاريخ « جبل لبنان » ، الى فترة « الفتن الطائفية » (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) . وقد كان من عوامل الانفجار ، بالاضافة الى ما ذكرنا اعلاه ، محاولات الامير بشير

القضاء على نفوذ مشايخ الدروز واعيانهم (وذلك يذكرنا بما فعله كميل شمعون مع زعماء المسلمين التقليديين قبل ١٩٥٨) . كذلك كان من عوامل نقمة الدروز ازدياد عدد النصارى ونفوذهم في المقاطعات الدرزية (نتائج معركة عين دارا و « تنصر » الامراء مثلا بالاضافة الى الدعم الاوروبي للموارنة) . كما يمكننا ان نضيف الى العوامل الناجمة عن التأثير الفرنسي والاكليركي والبابوي على الموارنة طوال القرون الماضية ، العوامل الناتجة عن تدخل انكلترا وتحريضها للدروز وعن استغلال تركيا للنزاعات الفئوية في جبل لبنان لتدعيم نفوذها المتهاوي ، وتنافس الدول الكبرى اجمالا على اقتسام « تركة الرجل المريض قبل وفاته » . وهكذا حدث الانفجار الكبير (١٨٦٠) بعد سلسلة انفجارات صغيرة (١٨٤١ ، ١٨٤٥) بين الدروز والموارنة الذين باتوا يعتقدون بانهم « جالية قائمة بذاتها وتتمتع بحماية دولة كبرى كاثوليكية هي فرنسا » . وقد فشل حكم القائمقاميتين في جبل لبنان (١٨٤٢ - ١٨٦٠) درزية ومارونية ، المقترح من قبل « مترنيخ » (ويعتبر كيسنجر من كبار المعجبين به حاليا !) ففرضت الدول الكبرى (ومعها تركيا) ضد رغبة فرنسا ، وضع المتصرفية في جبل لبنان » . كانت فرنسا ترغب في اعادة حكم الامراء الشهابيين (أو على الاقل حكم زعيم ماروني آخر كيوسف بك كرم الاهدني - الزغرتاوي) على لبنان تدعيما لنفوذها ، لكن الدول الكبرى الاخرى لم توافق فتوافق الجميع على جعل « جبل لبنان » متصرفية ذات استقلال داخلي ضمن السلطنة العثمانية يحكمها متصرف مسيحي كاثوليكي من رعايا الدولة العثمانية ، ولكن من غير اهل البلاد . وقد تميز عهد المتصرفية اجمالا (١٨٦١ - ١٩١٥) بسوء الحال في جبل لبنان ، نظرا لفساد الحكم وسوء الادارة ولحرمان « الجبل » من المناطق الخصبة في الساحل الجنوبي خاصة ، والبقاع ومن المرافىء الجيدة ، فزادت الهجرة الى مصر وبلاد اميركا واستراليا . وكان معظم المهاجرين من الموارنة ، كما زاد في تلك الفترة نشاط الارساليات « فكان لفرنسا قبل الحرب العالمية الاولى في سورية (ولبنان وفلسطين) ٥٠٠ مدرسة تضم بين جدرانها ٥٠٠٠٠ تلميذ وتلميذة » (ف. حتي) والمعروف ان معظم تلك المدارس كان في « جبل لبنان » .

وعلى سبيل التذكير ، نشير الى انه في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى وزادت فيها اطماع الدول الاوروبية في البلاد المحكومة من قبل الاتراك ، نشأت « الصهيونية » وعقد مؤتمر بال عام ١٨٩٧ فوضع اسس الحركة العنصرية الاستيطانية المدعومة من قبل الاستعمار . ثم كان ما كان .. حتى قامت اسرائيل عام ١٩٤٨ .

٥ - الحرب العالمية الاولى والانتداب الفرنسي - الوصاية على الحركة المارونية ورعايتها .

نصل الان الى منعطف جديد وخطير هو الحرب العالمية الاولى التي انهت عهد « متصرفية جبل لبنان » وافسحت المجال ، بنتائجها، امام الاستعمار الفرنسي ان يأخذ مداه في بلادنا تحت صيغة الانتداب . وعلى كل حال ، فقد كان تثبيت دعائم النفوذ البريطاني - الفرنسي في الشرق آنئذ ردة صليبية استعمارية بمعناها الواسع . فقد قال الجنرال اللنبي عند دخوله كنيسة القيامة بعد دحره للاتراك « الان انتهت الحروب الصليبية » وقال زميله غورو بعد دخوله دمشق اثر موقعة ميسلون ، وهو يقف على قبر صلاح الدين « صلاح الدين ها قد عدنا ، وانها لحملة صليبية جديدة » .

بعد موقعة ميسلون (مواجهة بين الفرنسيين والجيش العربي في سورية) التي فتحت ابواب سورية العربية امام الفرنسيين ، اعاد » الجنرال غورو اعلان (١٩٢٠) « لبنان الكبير » ، امارة فخر الدين المعني الكبير) اي « جبل لبنان » مع الاقضية الاربعة وبيروت (عكار - البقاع - جبل عامل - صور صيدا - بيروت - طرابلس) ضد رغبة اكثرية سكان تلك المناطق « المضمومة » التي كانت عروبية الاتجاه (باكثرية اسلامية) ترفض الانتداب الفرنسي وترغب بالعودة للدولة الام سورية العربية التي كانت تناضل من أجل الاستقلال التام . ويظهر كذلك ان الفئة الشديدة الحماس للفرنسيين في « جبل لبنان » كان يهمها في الدرجة الاولى قبل ١٩٢٠ ان يتبع « لبنان » فرنسا مباشرة اكثر بكثير مما كان يهمها توسيع حدود المتصرفية لتشمل ما عرف بعد ذلك بلبنان الكبير . وقد قال بشارة الخوري عن هذا الامر « وخفت البحث (١٩١٩) في انضمام لبنان الى المقاطعات الفرنسية وانصرفت سلطة الاحتلال الى التمسك بلبنان خشية حرمانها من السيطرة على غيره من اجزاء البلاد التي حررت من الحكم التركي » .

ومما علق في ذاكرة المؤلف عن حفلة استقبال هيأها الفرنسيون للامير فيصل (ربيع ١٩١٩) واوعزوا فيها « للبنانيين » بان يظهروا تمسكهم بالاستقلال (عن الدولة العربية في سورية) قول احد الزجالين :

عيشي بذلي ما نحبا — نتظاهر ما منتخبا
يا منال الاستقلال — يا منرحل عا اوروبا

ولم يكن اعلان « لبنان الكبير » (المستقل تحت الانتداب) الا بتحريض من فرنسا التي دعت البطريرك « الماروني » حويك الى باريس على رأس وفد من الاحبار والكهنة للمطالبة بذلك . « وقد ابحر عن جونيه اواخر صيف ١٩١٩ على مدرعة حربية » (بشارة الخوري - حقائق لبنانية) .

وهكذا كان في انشاء دولة « لبنان الكبير » مصلحة كبرى لفرنسا التي كانت تنظر الى مستقبل نفوذها في الشرق ، وبالتالي لم يكن من مصلحتها تشجيع انشاء « دولة مسيحية » بل عملت على توسيع حدود « لبنان » ليكون دولة ليس لها اي طابع طائفي واضح ولكنها تضم ظاهريا اكثرية مسيحية معظمها من « الموارنة » المتعاطفين مع فرنسا . ومع دستور ١٩٢٦ الذي رفضه العروبيون واكثريتهم من المسلمين اعلنت دولة لبنان جمهورية .

هكذا اخذ « الموارنة » يتمتعون تحت رعاية دولة الانتداب ومفوضها السامي بنفوذ متزايد في اجهزة الجمهورية المختلفة ، كما ان سياسة التربية والتعليم الرسمية بالاضافة للارساليات قد وضعت لخدمة اهداف المستعمر - عامة ولتزييف الشخصية الوطنية خاصة ، وهكذا قويت النزعة المعادية للعروبة عند قسم كبير من الموارنة المهيأين لذلك اصلا وازدادوا التصاقا بفرنسا « الام الحنون » .

وبعد ان كانت فرنسا تعتمد سابقا على الكنيسة المارونية والزعماء الاقطاعيين والتقليديين الموارنة ، شجعت عام ١٩٣٦ على انشاء منظمة شبه عسكرية « الكتائب » لمواجهة احزاب وتنظيمات اخرى ذات توجهات غير طائفية تتنافى مع مصلحة الاستعمار . وقد توافق ذلك مع بروز الفاشستية والنازية في اوروبا ومع الثورة العربية في فلسطين ضد الصهيونية التي كانت هي ايضا تلقى تشجيعا من الدولة المنتدبة بريطانيا .

ومما يجب الالتفات اليه اننا لا نعني بكلامنا عن المتعاونين مع فرنسا جميع الموارنة ، فقد كان هناك منذ زمن بعيد قسم من الموارنة المنفتحين على العالم العربي وقد برز منهم عدد كبير من المفكرين والسياسيين المعروفين ، واستمر هذا الاتجاه في عهد الانتداب ايضا . ويقول بشارة الخوري عن اجواء ١٩٣٦ في لبنان

- التتمة ص ١٠٤ -

الحركة الانعزالية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

« لبنانيون يسعون الى الاستقلال بالغاء الانتداب ، واخرون يتعلقون بالسلطة المنتدبة وبدوام سيطرتها فيستعينون بها ويستمدون منها نفوذهم ومكانتهم . لبنانيون ينادون بالتعاون مع البلاد العربية ، واخرون يتمسكون بالعزلة والانكماش ويولون وجههم شطر الغرب وحده ، ويديرون ظهرهم للشرق رافضين كل تعاون معه ، متنكرين للغته وتقاليده . روح لبنانية حقيقية لاتفرق بين مسيحي ومحمدي (مسلم)، وروح انتهازية ترتكز على تعصب طائفي ذميم مستنيرة بالوصاية الاجنبية لتحقيق اهداف خاصة . وليس هناك من غيرة على الدين ولامن بحزنون » .

٦ ـ الحرب العالمية الثانية وعهد الاستقلال

(العهد الماروني) : المارونية تبلغ سن الرشد .

وهنا نصل الى منعطف هام اخر وهو الحرب العالمية الثانية . فقد جاء سير العمليات الحربية فيها بجبر فرنسا الحرة على ان تعلن بلسان الجنرال كاترو ، نيابة عن الجنرال ديغول ، استقلال سورية ولبنان في حزيران ١٩٤٢ . وفي الوقت نفسه جرت مداولات عربية في القاهرة اكد فيها بشارة الخوري اوفر المرشحين حظا لرئاسة الجمهورية بحضور مصطفى النحاس باشا وجميل مردم بك «ان لبنان يريد استقلاله التام ضمن حدود الحاضر ، واننا نريد التعاون مع الدول العربية الى اقصى حد على هذا الاساس . تم استدركت ان عددا من المسيحيين لايعتنق هذا المذهب ، وقد يعاكسه لاعتقاده بضرورةحماية اجنبية لبلاده..» وقد كان لجميع هذه التطورات تأثير بالغ على الفرنسين اعداء العروبة في لبنان مما قوى الاوساط المعتدلة في الموارنة . ويقول ف . حتى « كان أكثر النواب المنتخبين (١٩٤٣) من الوطنيين الشديدي الحماس للقضايا الوطنية ومن الذين يعطفون على القضايا العربية » . وهكذا بعد ان « تحققوا (المسلمون) ان الرسالة استقلالية بحته ، امنوا بالاستقلال وبلبنان وصاروا من اول عماله » (بشارة الخوري) وبالتالي اصبح بالامكان ايجاد الاساس الجديد لدولة الاستقلال الذي تفاهم عليه بشارة الخوري ورياض الصلح ، فكان الميثاق الوطني وهو تنازل الانعزاليين (اكثريتهم من الموارنة) عن التمسك بالحماية الاوربية وتنازل العروبيين (اكثريتهم من المسلمين) عن الاتحاد مع سورية . وقد استكملت مفاهيم الميثاق بالبيان الوزاري الاول الذي شدد على شجب القاعدة الطائفية وعلى وجوب العمل على التخلص منها ، كما اوضح علاقة لبنان باخوانه العرب « ان اخواننا في الاقطار العربية لايريدون للبنان الا ما يريده ابناؤه الاباة الوطنيون ، نحن لانريد الاستعمار اليهم ممرا ، فنحن وهم اذن نريده وطنا عزيزا مستقلا ، حرا ، سيدا » .

وبذلك فتح في عام ١٩٤٣ الباب على مصراعيه لانشاء دولة لبنانية مستقلة متعاونة الى اقصى حد مع الدول العربية ورافضة للطائفية وصيغها ، ولكن ذلك لا يعني ان الانعزالية قد انتهت بل هي خبئت بانتظار السانحة المناسبة ، فالوزارة الاستقلالية الاولى (ايلول ١٩٤٣) « استقبلت استقبالا حارا في بعض الاوساط ، واستقبالا حسنا في اوساط أخرى ، واستقبالا واجما عند فئة تغالي في حب الانتداب » (بشارة الخوري) . بل لقد بدأت بعض الاوساط الانعزاليةتجاهر بمعارضتها لاستكمال اسباباالاستقلال مؤيدةبقاءالجيوش الفرنسية في لبنان،ومن ذلك خطابالبطريرك عريضة بالفرنسية في مدرسة عينطورة يوم ١٩ ـ ٣ ـ ١٩٤٦، وقد كانت الحكومة اللبنانية ممثلة بالاستاذ جورج حيمري « .. نحن لا يمكننا نكران هذا الجميل بل اننا نخالف الذين يطالبون بجلاء الجيوش الفرنسية عن بلادنا .. وبما أن وجود الجيوش عندنا لايتنافى مع الاستقلال ، فاننا نشجب شجبا عاليا اولئك الذين يصرون على المطالبة بجلاء القوات الفرنسية عن بلادنا » . (جريدة الحياة ٢١ ـ ٣ ـ ١٩٤٦) هذا مع العلم ان الجلاء الناجز قد تم في نهاية عام ١٩٤٦ .

كما ان اوساطا أخرى كانت قد ماشت الفكرة الاستقلالية أخذت « تأسف لمقاطعة الصهيونية لانها تجاب على لبنان في رايهم اضرارا اقتصادية بالغة » (تصريح بيار الجميل لمناسبة وجود لجنة التحقيق الانكليزية الاميريكية ٢ ـ ٤ ـ ٤٦) بل ان اخطر من هذا كان الحديث الخاص الذي ادلى به المطران مبارك (ذو النفوذ الكبير) الى صحيفة « بالستين بوست » في ٢٦ ـ ٣ ـ ١٩٤٦ . «.. نحن اللبنانيين المسيحيين ندرك ان الصهيونية تاتي بالتمدن لفلسطين وللشرق الاوسط كله ، واني منحمس جدا للصهيونية ..» وهنا نورد ايضا ما ذكره بشارة الخوري عن تصرف اخر للمطران مبارك في صيف ١٩٤٧ : « جاءتني رسالة من باريس تتضمن نسخة عن تقرير بعث به المطران مبارك الى اللجنة الدولية التي زارت لبنان للتحقيق بقضية فلسطين ، وقد طالب المطران في تقريره بوطن قومي لليهود في فلسطين ، ووطن قومي للمسيحيين في لبنان ، منتقدا موقف المسلمين انتقادا مرا ، وقيل لي أن كميل شمعون قد اطلع في جنيف على هذا التقرير ، ولكنه لم يبلغنا شيئا عنه .. وكنا اوفدنا شمعون الى جنيف ليمثلنا فيها .. » (حقائق لبنانية ـ الجزء الثالث) .

ثم كانت نكبة ١٩٤٨ التي اعطت الاوساط الانعزالية املا ظل كامنا في النفوس بان احلام الانعزالية ممكنة التحقيق بالعمل الدؤوب وذلك بالاعتماد على الدول الكبرى وخاصة اميركا التي اخذت تدريجياتحل في حنايا نفوسهم محل فرنسا بدءا بالمتعصبين المتأمركين كالدكتور شارلمالك ، مرورا « بأصدقاء »الانكليز العربقين امثال كميل شمعون الذي اغرق لبنان في بحيرة من الدماء عام ١٩٥٨ (ووفقها لم يكن للوجود الفلسطيني المسلح أي أثر) اكراما لمبدأ ايزنهاور ، وانتهاء بجميع الانعزاليين (ومنهم الكتائب) في السنين العشر الاخيرة (بمن فيهم اشدهم تفرنسا) وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ ونحول موقف فرنسا الديغولية عن تأييدها المتعصب لاسرائيل ضد العرب .

ومما يجب ألا يغيب عن البال المؤلفات التي كانت تظهر في الفترة الاخيرة وهي تشيد بالطائفة المارونية كجالية متميزة بل كقومية قائمة بذاتها ، بالاستناد الى تزييف التاريخ وتحميل احداثه استنتاجات مهيأة لخدمة الفكرة القائلة بأن لبنان قد اوجده الموارنة الذين وصفهم جبرائيل القلاعي قبل حوالي ٥٠٠ سنة بانهم « شعب مختار » والذين قال عنهم د . كمال الصليبي عام ١٩٦٩ « وكان من الطبيعي ان يتسلم الموارنة .. دفة الحكم في الجمهورية .. الا أن الفكرة اللبنانية وان يكن الموارنه هم الذين دعوا اليها فيالاصل .. الخ» اما الاب بطرس ضو فقد وضع عام ١٩٧٠ كتابا من حوالي ٤٠٠ صفحة عن تاريخ الموارنة من ٣٢٥ الى ٧٠٠ م وقد ختمه بالقول «والمارونية نسمة طاهرة تتحول بسرعة الى عاصفة لايقف في طريقها شيء اذا تعرض استقلالها (؟) لسوء » ..

بعد هذا العرض التاريخي السريع والمكثف ، هل يبقى شك في ان الحركة الانعزالية المارونية قد نشأت بفعل عوامل تاريخية كان العامل الحاسم فيها التدخلات الاجنبية ؟.

بيروت